محمد نادر العمري

الرد الإيراني الحتمي والمؤكد.. وإلا؟

لا تبدو أن تداعيات الهجوم الإسرائيلي الأخير على إيران، سيتم احتواؤه، أو أنه لن يواجه برد بات أمراً وضرورياً بالنسبة للقيادة الإيرانية، على الرغم من أن الساعات الأولى بل بعد هذا الهجوم حمل العديد من التسريبات الإعلامية وربما تكون الاختراقات الإعلامية ولاسيما الغربية منها، وبيّ مقدمتها الأمريكية والبريطانية، التي تحدثت عن عدم رغبة إيران بالرد على هذا الهجوم، لم تكن سوى محاولات لاحتواء هذا الرد.

التباين والتناقض وانتقال الصراع والتجاذب والكباش بين طهران وتل أبيب من النطاق العسكري الميداني، إلى الواقع الإعلامي السياسي والذي تمثل مؤخراً في جلسة مجلس الأمن التي انعقدت مساء الإثنين الماضي حول الأوضاع بالشرق الأوسط، تؤكد أن هذا الهجوم وتداعياته لم ينته، وخاصة في ظل وجود حرب الروايات التي تتجاوز إطارها الحرب النفسية، والتي تنقل الأولى بالدعاية الإسرائيلية التي اعتبرت أن هذا الهجوم المركب الذي نفذ بـ١٠٠ طائرة حربية وعدد من الطائرات المسيرة إلى جانب الحرب السيبرانية، حقق الأهداف المرجوة منه في استهداف منظومة الدفاع الإيرانية ومراكز إنتاج وتخزين الصواريخ الباليستية، وهو ما برز في تأكيدات معظم المسؤولين الإسرائيليين السياسيين والعسكريين وفي مقدمتهم رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو ووزير دفاعه يؤاف غالنت، في حلقة دعائية قدمت إيران رواية مضادة قوامها، إن هذا الهجوم كانت على دراية به، وإنه لا يعدو كونه استعراضاً للعضلات الإسرائيلية لحفظ ماء الوجه ولم يحقق أياً من أهدافه، بل على العكس من ذلك استطاعت القوات الدفاعية الإيرانية بمختلف مجالاتها من التصدي لمعظم أدوات الهجوم الإسرائيلي، وأكدت أن إسرائيل لم تستخدم سوى ٢٥ طائرة في هجومها الذي حصل على ثلاث جولات متتالية.

صراع وحرب وكباش الروايات الذي اتخذ شكل تحقيق مكاسب سياسية وترجمتها لمصلحة كل من الطرفين لتحقيق ما يمكن وصفه بكسر توازن الردع للطرف الآخر، يمكن تبيانه في مسعى إسرائيل للترويج بأن هذا الهجوم الأول من نوعه، سيفتح الآفاق أمام هجمات أخرى أشد وطأة وأكثر تأثيراً لكونه أضعف المنظومة الدفاعية لإيران، وظل من تأثير أبرز مقومات قوتها المتمثلة بالقوة الصاروخية. في مقابل السعي العسكري الإيراني الذي لا يمكن عزله عن المسار الدبلوماسي الذي شهد نشاطاً ملحوظاً من خلال الجولة المكوكية المتسارعة لوزير الخارجية الإيراني عباس عراقجي على عدد من دول الإقليم، وذلك لتعزيز قواعد الردع من ناحية قبل الهجوم، وهذا ما نجحت به إيران ولا يمكن إنكاره، وكذلك لإظهار قوتها ومكانتها الإقليمية وقدرتها بالدفاع عن نفسها.

بغض النظر عن مدى مصداقية كل من الروايتين، بشكل نسبي أو مطلق، والذي من دون أدنى شك، يوظف في إطار رسم معالم وقواعد اشتباك جديدة، وفي بعض الأحيان تحسين التموضع التفاوضي، يبقى الأهم من كل ذلك، السؤال الذي بات يطرح نفسه اليوم بكل قوة، هل هذا الهجوم خفض مؤشرات التصعيد على مستوى المنطقة وظل من احتمالات نشوب حرب إقليمية؟ وهل من شأنه أن يسرع من وتيرة التفاوض السياسي لإيجاد حلول ولو مؤقتة للعدوان الإسرائيلي المستمر على غزة ولبنان والمنطقة؟

إن جولة التفاوض التي شهدتها قطر بعد هذا الهجوم بساعات قليلة، وزيارة المبعوث الأميركي الخاص عاموس هوكشتاين للكيان الإسرائيلي، لن تفضي لأي نتائج أو مخرجات فعلية، ربما في أحسن الأحوال قد تشجع فقط لتحسن الأجواء في زيادة الآمال فقط باحتمال التوصل لاتفاق جزئي ومؤقت، خاصة أن إيران باتت اليوم أمام قرار الرد الحتمي على الهجوم الإسرائيلي، وذلك لعدة أسباب أولاً ـــ العدوان استهدف في جولته الأولى العاصمة الإيرانية طهران، وهنا بغض النظر في حال تحقيق العدوان أهدافه أم لا، إلا أنه استهدف العاصمة الإيرانية بما يحمله ذلك من مكانة معنوية وأمنية وعسكرية وسياسية، ولا يمكن لدولة كوزن ومكانة إيران أن تخطئ في حساباتها الاستراتيجية وتتجاهل رمزية وتبعات ذلك داخلياً وخارجياً.

ثانياً ـــ نجح عن هذا الهجوم الإسرائيلي ارتقاء أربعة شهداء من الجيش والقوات المسلحة الإيرانية، بمعنى أن هذا العدوان نجح عنه دماء، وهو ما يتطلب من إيران الدفاع عن شعبها ومؤسساتها وفق العقيدة الإيرانية.

ثالثاً ـــ لأول مرة تعلن «إسرائيل» بشكل مباشر وعلني مسؤوليتها عن شن هجوم وعدوان عسكري على إيران، وهو ما يحمل آثاراً سلبية على مكانة إيران الإقليمية في حال عدم ردها من جانب، ومن جانب آخر هذا الإعلان قد يكون تمهيداً لعمليات عدوانية عسكرية على إيران تستهدف أهدافاً أخرى في حال عدم قيامها بالرد لاستعادة صورة الردع وتثبيت موازين القوى، وهو ما أشار إليه المسؤولون الصهاينة بمن فيهم وزير الأمن القومي إيتمار بني غفير الذي عدّ هذا الهجوم خطوة جريئة أمام مسار من الهجمات التي ستفضي في نهاية الأمر لتمعير المفاعل النووي الإيراني بعد تقليص إيران من موارد قوتها الدفاعية والهجومية.

رابعاً ـــ عدم رد إيران قد يرجح الرواية الإسرائيلية وتجعلها أكثر رواجاً على المستويات الداخلية والإقليمية والدولية، من حيث إن إسرائيل نجحت في استهداف مخازن الأسلحة الصاروخية البالستية ومراكز إنتاجها فضلاً عن منظومة الدفاع، وستزداد رواج هذه السردية من قبل الإسرائيليين والأميركيين، خاصة من حيث ربط ذلك بعدم قدرة إيران على الرد خشية من نقص مخزونها الصاروخي والخشية أيضاً من رد إسرائيلي جديد في ظل تناقص عدد المنصات الدفاعية.

خامساً ـــ تصريح المرشد العام للثورة الإيرانية علي الخامنئي بأن ما فعلته إسرائيل خطأ في الحسابات يجب إضلاله، بمعنى أن تقدير الموقف الإيراني بأن هذا الهجوم ل